مجلة أنثروبولوجيا ISSN: 2437-041X
مجلد: 09 عدد: 01 السنة: 2023 E-ISSN:2588-2325

الجسد الموسوم

مقاربة الجسد كوثيقة ثقافية

Tattooed bodies Approaching the body as a cultural document

عبد الوهاب باشا*، جامعة تبسة، abdou.bacha@univ-tebessa.dz

تاريخ الإرسال: 2023/04/09 تاريخ القبول: 2023/06/14 تاريخ النشر: 2023/06/30

ملخص:

الوشم يتمثل في ظاهرة بارزة في المشهد الاجتماعي و الثقافي سواء أكانت تقليدية الارتباط بالعادة والموروث والتقاليد أو حداثية داعية للتحرر والفردانية والموضة والتميّز، والوشم ممارسة اجتماعية ثقافية عابرة للأجساد، عابرة لجغرافية المكان وتاريخ الزمان، فالوشم هو أداة تعبير عن هوية ما، صاحب هذه الهوية إستنفذ طرق التعبير عن هويته فكتب بالوشم على جسده وأصبح الجسد نصاً يُقرأ.

إن هذا المكون الخطابي والمعرفي الذي ينتجه الوشم إنما يتعدى في تشفيراته الى إنتاج الواقعة الثقافية، فمن الجسد وعبر الوشم تنبثق وتتناثر الأنظمة الرمزية من علامات ومعاني ودلالات تؤسس للتواجد الفردي والجماعي والذي أفرزته إرادة نسقية ومنهجية لِمَفهمة التجربة الوشمية للجسد كفاعل اجتماعي ثقافي، وهو تمثّل للّب تساؤلنا حول الجسد الموشوم كوثيقة ثقافية.

فالصورة الوشمية في تقمصها دور التجسيد لهذا الجسم الانساني تعطينا فهماً آخر لبُعد كلمة " جسد " ، تفوق بُعده البيولوجي ليأخذ بُعداً اجتماعياً وثقافياً وأنثروبولوجياً .

الكلمات المفتاحية : جسد، وشم، وثيقة، موضة، ثقافة .

* المؤلف المرسل

Abstract:

Tattoo is a prominent phenomenon in the social and cultural scene, whether it is traditionally associated with custom, heritage, and traditions, or modern, advocating liberation, individuality, fashion, and distinction. Ways of expressing his identity, so he wrote tattoos on his body, and the body, and the body became a text to be read .

This rhetorical and cognitive component produced by tattoos transcends in its encodings to the production of cultural reality. From the body and through tattoos, symbolic systems of signs, meanings, and indications emerge and scatter that establish individual and collective existence, which was produced by a systematic and systematic will to understand the tattoo experience of the body as a socio .cultural actor, and it represents the core of our question. About the tattooed body as a cultural document.

The tattoo image, in its role as the embodiment of this human body, gives us another understanding of the dimension of the word " body ", which goes beyond its biological dimension to take on a social, cultural and anthropological dimension .

Keywords: body, tattoo, document, fashion, culture.

مقدمة:

الناس يُعبرون عن أنفسهم وعن شواغلهم من خلال تشكيلة أعرض من النماذج الوشمية والتي تتجاوز فعل الكلمة الى مساحة الصورة والرمز والعلامة، فالوصم المرتبط بالوشم في المجتمع المحلي في منطقة تبسة هو نتيجة الارتباط المزدوج بالآخر الاستشفائي والآخر الجنسي والآخر السحري والآخر التجميلي والآخر الاجرامي، وما يبدو أنه وشم بالإرادة الذّاتية غالباً ما يظهر أنّه استجابة للآخرين، فالظاهرة الطبيعية التي تتحكم فيها القوانين الدقيقة بفعل الفكر النفعي والتقني قد تتخلى عن وجودها البسيط في تحوّلها لتترك المكان للوجود الرمزي الأكثر تعقيداً، فالسلوك الانساني سواء أكان حركياً أو فكرياً أو غذائياً أو حتى جنسياً لا يهدف الى مجرد القيام بوظيفة حياتية بل إنّهُ يرمزُ الى علاقة الانسان بالآخر وبالكون وبالتاريخ، فسلوك الكتابة بالوشم على الجسد لا يُعد سلوك فيزيائي فحسب بل يتعدى في تفاعله مع الجسد الى المستوى الرمزي ليُصبحَ مُنتِجاً لا متناهياً ثقافياً.

إشكالية الدراسة :

تعمل نقوش الوشم على الأجساد في إتجاه مُعاكس، فما تفعله هذه النقوش هو أنّها تُجسِد إحساساً بالمكان وبالمجتمع وبالتاريخ على جلد الفرد، هذا الاحساس بالمكان المرتبطة به أحلامه محمول على ظهره كأنه نقطة مركزية تتجدد، إنطلاقاً من الاتجاهات التي تمضي بالشخص في حياته وهو يتحرك مادياً، خلال المناطق المختلفة وعبر الزمن، من هنا ومن بُؤرية التوصيف والتحليل والتفسير عبر ممرّات عمل التحقيقات الميدانية، نطرح تساؤلاً رئيساً لمقالنا:

عندما نصل في مقاربتنا بأن المشي والأكل واللّباس والرقص والموسيقى بكل أطيافها وحتى الجماع بكل فنونه يؤسس لواقعة ثقافية، فهل الوشم يحقق مقاربة الجسد كوثيقة ثقافية؟

أسباب اختيار موضوع الدراسة :

كان مسعانا في هذه الدراسة هو الكشف ولو جزئياً على رمزية الجسد عموماً والوشم خصوصاً مع تمثلاته الهوياتية للجسد، فقد تكون الأسباب مُختلفة من باحث لآخر في اختيار موضوع الدراسة، وقد تكون هذه الأسباب علمية وموضوعية، كما يمكن أن تكون شخصية أو ذاتية، وهذا يرجع لموضوع الدراسة. فالأسباب التي دفعتنا لاختيار ظاهرة الوشم التراثية كموضوع للبحث وجعل الوشم ترجمان لهوية الجسد، لم تَكُن اعتباطية التوجُه إنّما جاءت لعدة عوامل موضوعية وأخرى ذاتية، لقد كانت نشأتي منذ الصِغر في مدينة ريفية التأسيس وتقليدية التنشِئة الاجتماعية، كان محيط العائلة مليء بالموشومين، كانت جدتي تحكي عن وشمِها وكأنّهُ جزء منها وعمتي بدورها تتزين بالوشم خروجاً للزواج، كان الوشم يقع على عيني موقِعَ المألوف من كثرة تواجُدِه على أجساد أقرِبائي، هذا التعايُش مع الأجساد الموشومة رسّخَ في ذاكِرتي سؤال لماذا يُوشِمون على أجسادهم؟

1_ الإطار المنهجي للدراسة:

1_ 1_ المفاهيم الأساسية للدراسة:

الـوشـــم:

لقد جاء في الموسوعة الميسرة عن تفسير مصدر كلمة وشم باللغة العربية كما يلي: " أن كلمة وشم معناها عادة وضع علامة على الجلد الآدمي، وبخاصة على ظاهر اليد، أو الذراع أو على الخد وللشعوب في ممارسته طرائق مختلفة بالوخز والتلوين والجرح، وقد مارسته بعض الجماعات الانسانية قديماً لأغراض نفعية، وقد يقترن بالحجامة أو التشريط دلالة على الحزن وقد يكون للحماية من عين الحسود، أو لإبراز امتياز طبقي أو رابطة قبلية عرقية ، أو مكانة اجتماعية، وقد استُعمِل الوشم مع الكي بالنار تحقيراً للمجرمين أو المسجونين، وتقل ممارسة الوشم في الشعوب الآخذة بأسباب الحضارة والتعليم والتقدم " (غربال، 1965، صفحة 165)

وفي مجلة رسالة اليونسكو نجد تفسيراً لكلمة الوشم كالآتي: (اليونسكو، 1940 العدد 165)" جاءت لفظة " تاتواج " أي الوشم من بولينيزيا حيث كانت ممارسة هذه العادة شائعة في كل الأنحاء تقريباً، وتشكل الأصباغ زخارف كثيرة وتُحقن تحت الجلد بمخارز من العظم تُغرز في الجلد بمِدق خفيف يطرقها برفق، وكان الأطفال في " ساموا " يوشمون دائماً حين بلوغهم طور الرجولة، وفيما يختص بزينة الجسم فإن عادة الوشم " تاتواج" وهي لفظة أتتنا من إسمها المحلي " تاتو " تكاد تكون شائعة في بولينيزيا و أكثر الرجال الموشومون من أهالي جزر ماركيز ".

وجاء في موسوعة الديانة والأخلاق تفسير مصدر كلمة وشم باللغة الانجليزية ,Hastings) (1921" إن كلمة وشم بالانجليزية مصدرها يرجع الى لفظ بلغة أهالي جزر " تاهيتي " هي "تاتو"، بمعنى يحدث علامة أو وخزاً في سطح البشرة، أو تأتي بمعنى يصيب. وقد إستخدمها الرحالة " كوك" لاسيما في وصفه لما شاهده في جزر " تاهيتي " والتي حاول فيها أن يعبر عن أن أهالي تلك الجزر يلونون أجسامهم بطريقة الوشم الذي يأتي بمادة سوداء يُدخلها الذي يدق الوشم تحت سطح البشرة الآدمية، عن طريق تشريطها وما أن تلتئم تلك التقرحات حتى يظل هذا اللون قائماً دون إمكان إذابته في الماء، ويُعتبر الرحالة " كوك" أول من إستخدم هذا اللفظ ونقله الى العالم المتحضر في وقته، ومنذ عهد " كوك" إستخدم لفظ الوشم باللغة الانجليزية للإشارة الى نوع آخر من الوشم يستند الى إحداث بروزات في البشرة الآدمية عن طريق تقريحها غير أن طريقة دق الوشم، وطريقة إحداث بروزات على البشرة الآدمية طريقتان تختلف كل منهما عن الأخرى إختلافاً بيّناً، فالوشم الحقيقي يعتمد على مواد ملونة تحت سطح البشرة كما سبق القول، أما إحداث البروزات على سطح البشرة الآدمية، فقد يكون ناجما عن الكي أو عن طريق تقريح البشرة وربط شفا التقرحات بحيث تضطر البشرة عند إلتئامها الى إحداث بروزات من جانب وإنخفاضات من جانب آخر، وسواء برزت أسطح تلك التقرحات أم إنخفضت فيتباين مستواها مع مستوى سطح سائر أجزاء البشرة، ويعتبر الوشم في صورة تلوينه البشرة أو إحداث بروزات من العادات التي ظلت منتشرة في بلاد عدة منذ أقدم العصور التاريخية . ولقد إنتشر هذا التقليد عند شعوب متفاوتة من حيث درجات ثقافتها وتطورها ، فقد نصادفه عند شعوب بدائية متناهية من حيث تأخرها الاجتماعي كالمستوطنين الأساسيين في القارة الاسترالية الذين يتخذون من وشم تقريح البشرة وإحداث بروزات فيها سمة يزينون بواسطتها أجسامهم، بينما نرى في جزر الأقيانوس والجزر اليابانية عادة تزيين الأجسام بنوع من الوشم يعتمد على تلوين البشرة، وفي تلك الجزر يبدو الوشم على درجة كبيرة من الإتقان من حيث حبكة الوحدات الزخرفية المستخدمة فيه ".

الجسـد :

تُعرف كلمة جسد في قاموس المعجم الوسيط، على أنّه جسم الانسان ولا يُقال لغيره من الأجسام المُتغذية، ولا يُقال لغير الانسان جسد من خلق الأرض .

والجسد : هو البدن، تقول منه تجسّد، كما تقول من الجسم تجسّم .

ولقد عرّفه أرسطو" كجسم طبيعي يحمل الحياة كقوة " (أرسطو، 1998) ، كما يعرفه ديكارت الجسد على أن " جوهره التفكير" (ديكارت، 1986)

بعد ما بيّنا قدرة كلمة الجسد على احتواء زخم قزحي من المعاني، سنحاول إفاء بعض التعاريف المهمة لكلمة " جسد "، لقد أورد جلال الدين سعيد في كتابه فلسفة الجسد تعريف معنى كلمة " الجسد " نقلاً عن " فرونسوا شريباز" فيقول " الجسد هو الصورة المعيشة والفاعلة والمتحركة التي تتلاقى فيها وتتآلف العناصر الحسية مع العناصر الحركية، إنّه الإحساس الذي يجعلنا نحيا ونشعر بكل حركات عضلاتنا ومفاصلنا..." (سعيد، 1991)

تحمل هذه الكلمة العديد من المعاني والدلالات، فما نُسميه الجسد هو ما يُجسدُ رواسب آلاف السنين من العادات والتقاليد والثقافات، وهذا ما يُبرزهُ شكل اللّباس وطريقة المشي والكلام والوضعيات المختلفة والأفعال التي يقوم بها الانسان، والجسد هو الشكل الذي يظهر عليه الجسم.

من المعاني والدلالات التي يتمثلُها الجسد كونه جسم تنبع منه الحياة من خلال دم يسري في بدن الانسان، هذا الدم بدلالته كسائل أحمر يبعث الحياة في جسم الانسان، يتحول ليعطي بعداً رمزياً يربط الأفراد في المجتمع الواحد إنطلاقاً من علاقات قرابة منظمة كالتي أصّل لها " كلود ليفي ستروس "، فالجسد في هذه الحالة هو تجسيد للعلاقة التي تربط بين الجسد والآخر، وبهذا يتعدى بأن يكون مفهومه مرتبطاً بالفرد فقط، ليتسع الى المجتمع ككل، معبراً عما أنتجه هذا الأخير من أطر وأنظمة علائقية تربط بين أفراده" . (Strauss, 1958)

إن الصورة في تقمصها دور التجسيد لهذا الجسم الانساني تعطينا فهماً آخر لبُعد كلمة " جسد "، تفوق بُعده البيولوجي ليأخذ بُعداً اجتماعياً وثقافياً وأنثروبولوجياً، فعندما ننزع عن الانسان جسده الذي يمثل اللون الاجتماعي والثقافي للجسم، فإنه لا يبقى أمامنا إلا جسم مجرد من حمولاته الاجتماعية والثقافية وقد لا يبتعد كثيراً عن المخلوق الحيواني الذي لا ينطق ولا يفكر

ولا يُثاقِف؛ وهذا ما يدفعنا الى القول أن الجسد هو تجسيد للإنسان من حيث هو فكر، من حيث هو ثقافة، من حيث هو منطوق فكري ثقافي معاً ...

إن التجسيد في تعبيراته هو إستثمار للمساحة القابلة لتحقيق الابداع الذي لا يستقل كلية عن الموجود أمام الانسان وإخراجه في شكل جديد، فالجسد يُخرج كل إنتاجات المحيط والمجتمع في قالب مُغاير يتميز بالصبغة الفردية، فتجسيد الدم في الأنظمة العلائقية بين أفراد المجتمع لا يختلف كثيرا في تجسيد الصورة بِبُعدِها الاجتماعي والثقافي كنظام من أنظمة التجسيد الجسماني للانسان، كما أن نظام تجسيد الصوت في نغمات يجعل من الجسم يُجسِد دلالة تنظيم الصوت إنسجاماً في التعامل مع الآخر، وبالشكل نفسه يمكن إعتبار الجسد بتجسيده لنظام الصوت تنظيماً للمعيش الفكري و الاجتماعي والثقافي والرمزي للانسان .

فالجسد ما تجسد في شكله للجسم من صورة وقوام وهندام، فالجسم مِنحة أولى تُعطى للإنسان في شكل مورفولوجي وبيولوجي تحكُمه فيزيولوجيا بآليات مُنتظمة، من بذرة أولية في شكل خلية بشرية نتاج بُويضة آدمية مُلقحة، ثم نمو فإستواء؛ فِولادة؛ فحياة ... فالجسم الإنساني كمادة يحتاج الى شكل لائق يظهر عليه وبمعنى أدق يتجسدُ فيه، في شكل ملابس أو صورة أو لغة منطوقة أو إشارة دالة أو حركة مُوجِهة أو وضعية من فعلٍ أو سلوك؛ وهذه كلها لا تولد مع الجسم بل يجسدها الجسد.

من خلال التحاليل سابقة الذكر، نجد أن الجسد والجسم والبدن ثلاثتها تتفاعل فيما بينها بشكل دائم ومستمر لتشكل أيقونة إنسانية حية، وأي خلل في هذا التفاعل يولد نقصاً أو عيباً أو مرضاً نفسيا كان أو عضوياً، أما توقف هذا التفاعل كلية فيؤدي الى إنعدام صفة الحياة عن هذه الوحدة بتركيبها الثلاثي، مما ينتج عنه الموت وتحول الجسد الى جثة هامدة لا تفاعل معها .

ويكون إستنتاجنا الى أن كلمة " الجسد" تبقى الكلمة الوحيدة المؤهلة للتعبير بحمولة الدلالات والمعاني عن الانسان بكامل كيانه، كلمة " جسد " تُعبر عن الانسان بكيان وجودي لديه علاقة إرتباط مع الآخر سواء أكان كيان إنساني مثله أو كائن حيواني أو جماد، وبالأحرى إرتباط علائقي مع هذا العالم الفسيح الذي يقبل التجسيد له ومعه، في شخص الانسان من خلال سماته وصفاته وسلوكه ومنطوقه وحمولاته الفكرية والمعرفية والاجتماعية والثقافية من عادات وتقاليد وطقوس وموروث وآثار مادية ومعنوية. وكون كلمة " جسد " وكما سبق بسطها وتشريحها وشرحها

تضم كلمتي جسم وبدن، فالجسد عبارة على جسم له بُعده الاجتماعي في شكل صورة آدمية للانسان، وعلى إعتبار البدن جزء من الجسم فهو ضرورة جزء من الجسد.

إن تفرد معنى الجسد بإحتوائه لعدد كبير من المعاني هو الذي يؤهله ليكون ما نتبناه من مصطلح خلال هذه الدراسة. إن توليد المعاني لكلمة الجسد من خلال هذا التعريف والذي نتبناه في بحثنا يجعلنا نُولِد المعنى من المعنى فنقول أن الجسد يتمثل في تكامُلِية المعنى الاجرائي بين الشعور والحركة والفكر، حيث أن الانسان في تفاعله اليومي والمستمر مع الحياة الاجتماعية يجعل الجسد يتجسد مع المُعاش في الفكر والحركة والاحساس باللغة كمنطوق والصورة كتشكُل والدم كرابطة اجتماعية علائقية والصوت والرؤية والسماع كبواعث للإحساس ....

معاني الجسد المقصود دراسته هنا والذي يتعدى ما وصلت إليه البيولوجيا من إبراز للجسم البيولوجي، الى ما تبحث فيه العلوم الانسانية من تجسيد للجسم الانساني، وما تتطلع إليه الأنثروبولوجيا عبر عملية الوصف الكثيف كممارسة مُتجددة للإثنوغرافيا، وفحوى سيميائية الثقافة وما تقتضيه من أن الانسان عالق في شبكات رمزية، نسجها بنفسه حول نفسه؛ لتوصيف الجسد الأنثروبولوجي واقعاً مُعاشاً، فالجسد صورة للذّات يُهذبها الهندام واللباس، مُعبراً في ثناياه عن شخصية وهوية، كما أن الجسد روح وفكر إحساس وجمال، متعة ورغبة وجنس، وأداة تعبير وتواصل، ومنه فالجسد بكل تجسيداته هو نص يُقرأ.

2.1. مناهج الدراسة " المنهج الأنثروبولوجي ":

إن أهم ما يُميز الأنثروبولوجيا عن باقي العلوم هو منهج الدراسة، والأداة الأساسية في الدراسات الأنثروبولوجية في الحصول على المعلومات هي إعتماد الملاحظة بالمشاركة، والتي تستلزم على الباحث أن يقيم فترة كافية من الزمن في مجتمع الدراسة، بالإضافة الى المقابلة كأحد أهم أدوات البحث الأنثروبولوجي (السخاوي، 1996)

2. الجسد الموشوم حامل للثقافة:

من محصلات الفكر النِتشوي أن لا شيء موجود خارج دائرة الجسد، والذي يعتبر بطبيعته كياناً أولياً مُتعدد الدلالات والوظائف وعابر لحقول المعرفة والعلوم، ومقاربتنا الأنثروبولوجية للجسد تعتبر الكيان الجسدي بحواسه وكوامنِهِ وتفاعلهِ مع الآخر ومع الكون ومع الذّات، يُخفي قوى خلاّقة تتفاعل فيها الحواس ومعها الروح فنّاً وفكراً وثقافة، وحينما تتداخل الحواس بين الذوق واللمس والسمع والشمّ وتكاملاً بقوة الابصار، تتجلى اللّغة بمنطوقها لتُنتج دلالات قيمية وفكرية

وجمالية لجسد يختلف عن غيره من الأجساد والأجسام بالوعي واللاوعي، وبالقدرة على الكلام والصمت والتميّز بالتفكير والاستبصار والتخييل والحدس وتسمية الأشياء، فالاقتدار على الكلام والحديث في اللغة وباللغة يُكسِب الجسد ملَكة الإحكام المُبدع بين المعنى واللامعنى " كأن يُستثمر اللاّمعنى حسب عبارةGilles Deleuze لتوليد المعاني من غير ما توقف وتحديثها تواصلاً فاعلاً بين مختلف إمكانات التفكير " (Deleuse, 1969)

فالجسد مُنتج للّغة، والاقتدار على اللّغة يمتلك توليد للمعاني والدلالات القيميّة والرمزية وإنتاج للرموز والعلامات في الوجود الحسي والحضور النفسي وبالتالي فهذا الإحكام الجسدي وصولاً بالانسان الى عتبة الوعي من شأنه إكساب قيمة مُضافة في التحكُم في الشراكة التقنية والتنظيم الإجتماعي، والحديث عن إنخراط الجسد في سيرورات إنتاج الفعل والتفاعل الاجتماعي، هو إعتراف صريح بأن الجسد دال ثقافي وبالتالي حامل للثقافة.

ولا يقف الجسد كدال ثقافي عند الترويض البدني في علاقته بالنفسي والعقلي، بل يتعداه الى تجسيدات الجسم الانساني في مظاهر جسدية كاللباس والأكل والمشي والعُري والرقص والوشم، إنّها نصوص تُكتب وتشتغلُ داخل متن الجسد، فالاشتغال على الجسد الموشوم كمتن أو كنص مفتوح على القراءة والتحليل والتأويل وفك شيفراته الثقافية، من شأنه أن ينقلنا أو يُحيلنا على حضور لغة الوشم الصامتة بأشكالها ورموزها وعلاماتها لتُنتج أنظمة دلائلية تختلف بإنسيابية؛ مردوديتها مع القيّم والعادات والتقاليد والطقوس.

إن هذا الإيلاج الخارق لعذرية الجلد بوخز الإبرة المتكرّر، إنما ينقل الجسد عبر طقس عبور في لحظة الانتشاء المؤلم الى جسد وقع عليه الفعل الواشم فيتحول الفعل والمفعول الجسدي مع لحظة الفعل الى واقعة ينخرط فيها الجسد ثقافياً فيُنتج المعاني ويتفنن في اخراج النصوص الوشمية الدالة، فِللدم السائل معنى وللجُرح معنى وللألم معنى ولوصمة الوشم معنى، وهنا تتوالد المعاني فيصبح للإرادة مكان وللتحمل مجال وللخيار سبيل وللدوام فضاء وللذّاتية موضع وللآخرية تبادل للدور، وكما أشار **ألفريد جيل** " ما يبدو أنه وشم بالإرادة الذاتية غالباً ما يظهر أنه استجابة لآخرين " (أحمد، 2010) وهنا عند إكتمال الواقعة الوشمية ويتحول الجسم العذري الى كيان يتجسد عليه الوشم، فتتأسس في هذا السياق تمثلات باقية للهوية الوشمية الذاتية بقوة اللحظة وبقوة التاريخ وبقوة الفعل الوشمي، فتصبح هوية الجسد الموشوم منتجة للفعل الثقافي وإسناداً للفكر الفوكوي الذي يحرر أن الجسد هو سطح لنقش الأحداث، ليصبح الجسد الموشوم وثيقة ثقافية.

3_عولمة الثقافة الوشمية الصامتة:

الثقافة الوشمية هي نقطة تقاطع الذّات مع الآخر، وبفعل التأثُر والتفتّح والتلاقُح والتبادل تنتج الثورة الثقافية الصامتة للوشم فيما بين التجاذبات والتنافُرات الإنسانية، فيحدث الانتشار والتفاعل بما تملكُه الثقافة الوشمية من قابلية التمثُّل للأفكار الجديدة وبما أحدثته التكنولوجيا من تطور للتقنيات والأدوات الوشمية، وهذا ما يزيد من سريان التفكير الوشمي وحضوره في مشهد العولمة، وهذا الحضور المرئي الموشوم يتوافق مع أساسات، أن التثاقُف الوشمي ظاهرة تاريخية اجتماعية وثقافية وواقعية، بالإمكان رصد سيرورتها وتتبُّعِها، حيث أنّها بُنيت على التغيُّر والتجديد عبر التاريخ، وساعدها في الانتشار عبر مراحل زمنية في جغرافيات العالم المختلفة موجات الهجرة البشرية والتبادل التجاري وحتى الحروب وفترات الاستعمار والغزو، وفي راهنيتنا والحاصل من تطور في تكنولوجيات الاعلام والتواصل وإنتقال المعلومات والصّور، أصبحت ظاهرة الثقافة الوشمية عالمية الانتشار بموضوعها وإتجاهاتها ولها قدرة الاختراق لجميع الحدود، فكرية كانت أم جغرافية، الى درجة أن هيمنة الثقافة الوشمية صنعت توجُهاً فكرياً ونفسياً، أنتج أجساداً ثقافية تحملُ من العلامات والرموز الوشمية ما يُؤهِل الوشم الى درجة لغة صامتة عالمية التشارك في الممارسة والتواصل والحوار، وهذا ما يجعلنا كباحث نؤهل موضوع الثقافة الوشمية للدراسة والتحليل والرصد والتعقُّب، فموضوعات الثقافة الوشمية تطورت وأخذت منحى التشكّل في صورها الجمالية والفنية والجنسية والجندرية والعاطفية والإنحرافية والإجرامية الى درجة بروز تنوّع هوياتي وشمي، من شأنه خلق عنف ثقافي ذا هوية وشمية.

4_ الهوية الثقافية الوشمية:

إن مقارنة الأجساد ثقافياً واجتماعيا في مجالنا المدروس يجعلنا نستنطق هذا الفضاء الجسدي بحمولته الرمزية لتوليد المعاني وتفسيرها، ممّا يُدعم قوة هذه التفسيرات، ويزيدها صمودا في وجه الانتقادات؛ نحن نُبين في هذه الدراسة كيف يُتجسد الوشم كثقافة شعبية على الجسد، وكيف يتمظهر هذا الكيان الجسدي في تَمثُله للصورة الوشمية عليه، وكيف يُكوّن صورة مثالية لهوية ثقافية وشمية خاصة، فإهتمامات البحث تنصبُّ إذاً على وحدة التحليل تلك، التي هي الصورة الوشمية بإعتبارها معبّرة عن وعي إجتماعي بالهويّة الذّاتية، ذلك أنّ أنثروبولوجيا الهوية المقترحة هنا تتعامل مع الصّورة الوشمية للأجساد، بإعتبارها أولاً تعبيرة من تعبيرات الانتاج الاجتماعي محدداً بظروفه التاريخيّة أوضاع المجتمع المدروس، وهي بذلك تخضع لآلية بناء وسيرورة إنتاج جماعية قابلة للتعقُّل العلمي السوسيولوجي، وبإعتبارها ثانياً بناءً ثقافياً فنياً ذي آلية مجتمعية ليس فقط على صعيد إنتاجها بل على صعيد تداولها وحملها كآلية تمثل جانباً ثانياً من جوانب تلك المعقولية السوسيولوجية القابلة للتعرّف العلمي .

لا ترمي أنثروبولوجيا الهوية التي ينضوي تحتها موضوع الدراسة الى تحديد قسمات ما مُفترضه لهويّة المجتمع المدروس، بل هي بحث في تمثُّل تلك الهويّة وبناء التّصاوير عنها من خلال الصور الوشمية بناءً ذا طبيعة إجتماعية بالمعنى السوسيولوجي، وعناصر الهوية الثقافية الوشمية تتلخص أولاً فيما يهتم بأدوات وأشكال التعبير التي تُحدث علاقة إرتباط بين الذّات الموشومة والآخر الذي قد يكون فرداً أم جماعة، وثانياً حول التصورات والخيال الاجتماعي بما هو عالق حول الثقافة الوشمية كما يتمثّل في ثقافة المجتمع، وثالثاً حول منظومة السلوك العملي لحاملي الأوشام على أجسادهم، والهوية الثقافية الوشمية ليست تمثلات جامدة أو عقيمة بل هي أدوات للحياة وأدوات للتنوّع الجالب للتمايُز، فهي تكتسب معانيها وفاعليتها من تأويلاتها وكيفيات تجسيدها واستعمالاتها، وفي مُحصِلتها فالهوية الوشمية تعبير عن الوجود وتعبير عن الذّات.

4_ التحوّلات الوشمية بين التقليد والحداثة:

في أواخر القرن العشرين ومع بدايات القرن الواحد والعشرين، ظهر للوشم في المجتمع المحلي غايات مُغايِرة للطابع الأصلي لِبُنية الصورة الوشمية على الجسد، لم تعُد تحمل دلالات الوشم الأصلية ومعانيه الأولية وحتى أماكن الوشم الجسدي تغيرت فتحول الوجه عند المرأة مساحة من الجسد ممنوع الاقتراب عبر الدق الوشمي عليه، فإقترن الوشم بالرجال من دون النساء تقريبا(هذا في المجتمع المحلي المدروس)، تمايُز وإختلاف في الرموز والأشكال والصور الوشمية، وكذلك أماكنها على الجسد، فأصبحت أماكن أخرى من الجسد مواضع للوشم عليها كالرقبة والكتف والذراع والأرجل وغيرها حتى تمثّل الجسد بالوشم في أي مكان، وأصبح لكل رسم وشمي أو رمز موشوم دلالة تخُص صاحبها وبذلك فقد الوشم الرابط الجماعي وأصبح ينحو في اتجاه الفردانية

بدايات الوشم كان هدفها وقائياً من المرض ومن السحر ومن الأرواح الشريرة ثمّ سرعان ما تحوّل الى زخرفياً وجمالياً (قودري، 1947)، تحوّل الوشم من نمطية الشكل الى زخم لا ينتهي من الأشكال، ومن مرجعية جماعية الى التحرّر والفردانية، ومن وشم صاحب اللون الواحد الى وشم متعدد الألوان، كما هو مبيّن في الشكل 01 .

الشكل رقم 01 : التحوّلات الوشمية بين التقليد والحداثة

ISSN: 2437-041X
E-ISSN:2588-2325

المصدر: من انتاج المؤلف .

خاتمة:

نخلص الى أن الثقافة الوشمية نتاج تفاعلات ثقافية وحضارية ضاربة في قِدم التاريخ، تطورت وانتشرت في مجتمعات ما تزال تُقارب الاشتغال بالوشم كممارسة اجتماعية، بفضل التواصل والتّناقُل والتّثاقُف بين الأنواع البشرية بالرغم من اختلاف البُعد الحضاري والجغرافي، والذي شكّلَ تنوّع كبير في الأوشام وأنواعها ووظائفها ودلالاتها، والتي تُجسِدُ تعبيرات لها مرجعيات هوياتية، تجعل من الأجساد الموشومة حاملة للثقافة مترجمة لحالها في أشكال وثيقة ثقافية .

كما نخلص الى أن :

الثقافة الوشمية على الأجساد بموضوعاتها واتجاهاتها أخذت مسلكاً عالمياً في الانتشار وقدرة الاختراق الفكرية والمجالية جغرافياً، وأصبحت انسيابية التمثُل والتجسيد في صور مُتغايرة للهوية الجسدية.

فالوشم تحوّل الى ثقافة تسري في المجتمع وفكرة قابلة للتثاقف، وعلامة اجتماعية قادرة على تجديد ملامح الشخصية الفردية. ويجعلنا كباحث نؤهل موضوع الثقافة الوشمية للدراسة والتحليل والرصد والتعقُّب، فموضوعات الثقافة الوشمية تطورت وأخذت منحى التشكّل في صورها الجمالية والفنية والجنسية والجندرية والعاطفية والإنحرافية والإجرامية الى درجة بروز تنوّع هوياتي وشمي، من شأنه خلق عنف ثقافي ذا هوية وشمية. وفي مُحصِلتها فالهوية الوشمية تعبير عن الوجود وتعبير عن الذّات، فقد من خلالها الوشم الرابط الجماعي وأصبح ينحو في اتجاه الفردانية . كما نخلص الى آفاق بحثية جديدة من شأنها أن تُفعِل العملية البحثية بمساقات حداثية تكون بمثابة محرار يقيس مدى تحوّل الفكر الانساني نحو قابلية التّثاقف عبر الفعل الثقافي الواشم للأجساد. فالفاعل الجسدي لا يأسره نموذج أو قالب في صورة من الثبات تجعله أسير الاحتباس، ولكن في تعاملاته مع الذّات وخارجها، مع الآخر ومع الأشياء ومع الواقع، تجعله في وضعية المتفاعل الذي يبني تجسيداته على التحوّل والتغيّر في الفكر والروح والعمل وكل ذلك بخلق الفرص التي تتيح التجدد في الوسائط والتقنيات والوسائل والأدوات، مما يُتيح للجسد القدرة على توليد الدلالات وإنتاج المعاني والتفنُن في تغيير الصور والوجوه، وتكسير نظام نمطية النماذج والقوالب والأشكال، وكل ذلك يأتي في تراتبية وبأساليب متفاوتة في أهمياتها من أجل تحديد ملامح هوياتية خاصة بالذّات الفاعلة .

ومن خلال دراستنا لموضوع الجسد والهوية وتمثلات الوشم بيت التقليد والحداثة في دراسة سوسيو- أنثروبولوجية وإعتمادنا على الأدوات المنهجية وصلنا الى مجموعة من الحقائق والنتائج

فتحت لنا آفاق بحثية جديدة من شأنها أن تضيف في الفضاء البحثي حول موضوع الجسد والهوية والوشم توجهات حداثية نعرض من أهمها :

حينما توصلنا الى نتيجة أن الوشم لغة صامتة فنحن بذلك نفتح أُفقا بحثيا حول مقاربة لسانية تحتاج الى تأصيل نظري وأشكلة للموضوع وتمشي بحثي تُنتجه مخرجات ميدانية للدراسة، فالوشم أصبح لُغة عالمية مُوحدة بين مُعظم الشعوب ولكن لا يفهمها ولا يفقهها إلاّ المُنخرطين والقريبين من فضاء الموشومين، وهنا يجدر بنا أن نطرح سؤالاً؛ هل الوشم بحمولة معانيه ورسائله يُعدُّ وسيلة للتخاطب؟ أم أنّه مجرد علامات ورموز لديها بُعد رمزي ولا ترقى للبعُد؟

من هذا المنطلق سوف نبحث في الشروط والقواعد والأسس لظاهرة التخاطب الوشمي وسنعمدُ الى إحالتها للإختبار نظرياً، ونتحقق من مدى توافقها للقواعد النظرية لظاهرة التخاطب، فأصحاب علم الألسنية حددوا دعائم ومقومات أساسة للتخاطب وفعل التلفّظ " تتمثل في أربعة : متكلم مخاطب، ومتقبل مخاطب مقصودا بالخطاب، و إطار زماني فيه يقع عمل التلفظ، وإطار مكاني يتحدد بإيقاع هذا العمل. فوجود رسالة يبعثها باعث ويستقبلها مبعوث إليه في إطار زمكاني يحقق مشهد المقام التخاطبي، الذي تتكاثف فيه مؤثرات التأويل الدلالي لتنتج المعنى، أربعة أساسات يحققون فعل التخاطب وعمل التلفظ ، فهل يا ترى هذه الاساسات الأربعة تتوفر في ظاهرة الوشم ؟ و تنطبق في قياسها على نظرية التلفّظ؟ في هذا السياق تؤكد الباحثة اللسانية الفرنسي Marie-Anne Paveau التي بحثت في الوشم كظاهرة لسانية، على أساس عدم السبق والاعتناء فيه بهذه المخرجات التي تُحقق عمل التلفّظ والتخاطب، على أن الوشوم هي " كتابات جسديّة لأشكال خطيّة جلدية تمثّل في الآن ذاته خطاب جسد وخطابا عن الجسد " وعليه نقول أن هذه المقاربة اللسانية التي تؤهل الوشم على أنّه لغة صامتة يحتاج الى دراسة بحثية وعلمية بأدواتها المنهجية كأفق بحثي جديد .

قائمة المصادروالمراجع:

محمد شفيق غربال. (1965). الموسوعة العربية الميسرة. القاهرة: دار القلم ومؤسسة فراكلين للطباعة والنشر .

اليونسكو. رسالة اليونسكو.(1940). العدد 165.

أرسطو. (1998). النفس. ترجمة تريكو. باريس: مطبعة فران (Vain) . ج2. ص20.

ديكارت(1986). مقالة في المنهج. باريس: طبعة ليبيو. ص4.

جلال الدين سعيد(1991). فلسفة الجسد. دمشق: ط1. دار أمية للنشر. ص19.

مصطفى السخاوي(1996). الايكولوجيا الثقافية. الاسكندرية : دار المعرفة الجامعية. ص96.

هيلين توماس وجميلة أحمد (2010). الأجساد الثقافية- الاثنوغرافيا والنظرية - .ترجمة أسامة الغزولي. القاهرة: المركز القومي للترجمة. ط1. ص60.

ماتيا قودري (1947). المرأة الشاوية في الأوراس – دراسة سوسيولوجية للبربر -. فرنسا. ص128.

James Hastings. (1921) .Ency of Religion and Ethics. vol 12.France

Gilles Deleuze (1969). Logique du Sens. Paris : Edition de Minuit. P19.

Claude lévi Strauss (1958). L' anthropologie Structurale. Paris : plon. P125.